المـراقبـــة

المراقبة خلق جليل وحال عظيم ، وشرط من شروط كمال الإيمان ، يتحلى بها سعداء المؤمنين الذين كمل إيمانهم وتحقق بالله يقينهم. وهي تعني: دوام علم العبد وتيقّنه باطّلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. (مدارج السالكين) .

والمراقبة حالة للقلب يثمرها العلم الجازم بأن الله أحاط علمه بكل معلوم لا يعزب عنه شيء ، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في القلب من إحسان ومراقبة ، وفي الجوارح من إتقان وتجويد ، فالله مطّلعٌ على الضّمائر ، عالمٌ بالسّرائر ، وعلمه سبحانه وتعالى تامٌ محيطٌ بجميع الأشياء جليلُها وحقيرُها صغيرُها وكبيرُها ، رقيبٌ على أعمال العباد ، قائم على كلّ نفس بما كسبت ، وأنّ سرّ القلب في حقّه سبحانه وتعالى مكشوف ، فليستح المسلم من الله حق الحياء ، وليراقبه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وليستحضر معيته (سبحانه وتعالى) في السر والعلن ، يقول تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[المجادلة: ٧].

المراقبة في القرآن الكريم:

لقد ورد الحديث عن مقام المراقبة في القرآن الكريم في آيات كثيرة ومواضع متعددة وأساليب متنوعة ، منها :

- **إخباره سبحانه وتعالى عن عموم مشاهدته ، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم ، وفي هذا دعوة لمراقبته سبحانه على الدوام ، فقال:{وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[يونس:٦١].**

 إخباره سبحانه وتعالى بعلمه خائنة الأعين ، أي: مسارقتها النظر إلى ما حرم الله (عزّ وجلّ) وما تخفي القلوب ، قال تعالى:{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[غافر:١٩]، وفيه تذكير باطلاعه على صغائر الذنوب فكيف بالكبائر؟!! وهو تعالى يعلم البواطن!!

 كذلك أخبر ربنا سبحانه وتعالى أنه مع خلقه لا يحجبه مكان ، ولا يخفى عليه شأن ، مطلع عليهم ومجازيهم بأعمالهم ، قال تعالى:{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد: ٤]، وهذه المعية، معية العلم والاطلاع ، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

 وأخبر (عزّ وجلّ) أنه يرصد أعمال العباد لَا يَفُوتُهُ منها شيء حَتَّى يُجَازِيَهُم بِهِا ، قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[الفجر:١٤]، فليعلم العبد أن الله تعالى ناظر إليه ، مطلع عليه ، ولله درّ الشّاعر:

إذا ما خلوت الدّهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ... ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أنّ اليوم أسرع ذاهب ... وأنّ غدًا للنّاظرين قريب

والمراقبةُ والإحسانُ قريبان في المعنى ففي كل منهما استحضار لعظمة الله (عزّ وجلّ)، وهو ما عبر عنه النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث جبريل (عليه السلام) حين قال: فأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسانِ؟ قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَراهُ ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَراكَ ...) (رواه مسلم)، فلسانُ حالِ العبدِ المراقب لله (عزّ وجلّ):" الله ناظر إليَّ، الله مطلع عليَّ" ، وفي حديث مُعاذِ بْنِ جبلٍ (رضيَ اللَّه عنه) عن رسولِ اللَّهِ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) قال: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ) (رواهُ التِّرْمذيُّ).

على أن من يراقب الله (عزّ وجلّ) لا يجترئ على حدوده ولا معاصيه، قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء:١]،وقال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}[الأحزاب:٥٢]، وعن ابنِ عبَّاسٍ (رضيَ اللَّه عنهمَا) قال: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) يوْمًا فقال: (يَا غُلامُ إِنِّي أُعلِّمكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللَّه ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...) (رواهُ التِّرمذيُّ)، فالله سبحانه هو الحفيظ ، القائم على كل نفس بما كسبت ، يكلأ الخلق بفضله ومنّه ، يفيض عليهم بعنايته وحفظه، فينبغي على العبد أن يحفظ ربه بمراقبته سبحانه، وملازمة تقواه ، واجتناب نواهيه، فيحفظه الله في نفسه وأهله، ودينه ودنياه لاسيما عند الموت ، إذ الجزاء من جنس العمل، قال تعالى:{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[البقرة:٤٠]، وقال تعالى:{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ} [الرَّحْمَنِ:٦٠].

والمراقبة : استحياء من نظر الله (عزّ وجلّ) للعبد واطلاعه عليه، وما

يترتب على ذلك من الامتثال والاستقامة ، فعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قال: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ) قال: قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قال: (لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ) (رواه الترمذي).

نماذج في المراقبة:

لقد ضرب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نماذج عظيمة تخلق أصحابها بخلق المراقبة لله رب العالمين ، ومن ذلك:

قصة نبيِّ الله يوسف (عليه السلام) فيها من المراقبة ما فيها ، يقول الله تعالى:{وَرَاوَدَتْهُ الَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقالتْ هَيْتَ لَكَ قال مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ}[يوسف:٢٣-٢٤]، فهي امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال ، وهي السيدة المطاعة ، ويوسف (عليه السلام) الغلام المأمور الضعيف ، ورغم ذلك حقق مقام المراقبة لله تعالى خير تحقيق ، فبعد أن راودته امرأة العزيز عن نفسه وتهيأت وتجملت له ، وأحكمت غلق الأبواب ، قال لها بلسان الخائف من ربه، المستحضر عظمته تعالى أمام عينيه:{مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}.

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله نجد مثلاً آخر لمراقبة الله (عز وجل) ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قَالَ : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابّا في الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقال: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عَيْنَاهُ) (متفقٌ عَلَيْهِ).

ومن النماذج الطيبة التي نستدعيها من تاريخنا الخالد نتيجة مراقبة الله (عز وجل) قصة تلك المرأة صاحبة الضمير الحي والحس الإيماني في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حيث كان (رضي الله عنه) يتفقد المدينة ليلاً ، فاتكأ على جدار ، فسمع امرأة تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها: يا أماه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته ؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنية قومي فامذقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا ، كل ذلك وأمير المؤمنين يسمع ، فسرَّه أمانة الفتاة ويقظة ضميرها ، فاختارها زوجة لأحد أولاده ، وكان من ذريتها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه).

وقد مَرَّ ابن عمر (رضي الله عنهما) براعي غنم فقال : يا راعي الغنم هل مِن جَزرة ؟ قال الراعي: ليس ها هنا ربها ، فقال ابن عمر : تقول أكلها الذئب ! فرفع الراعي رأسه إلى السماء ثم قال : فأين الله ؟ قال ابن عمر: فأنا والله أحق أن أقول فأين الله ، فاشترى ابن عمر الراعي واشترى الغنم فأعتقه وأعطاه الغنم. (رواه البيهقي في شُعب الإيمان ، وابن عساكر في تاريخ دمشق) .

مكانة المراقبة:

لمراقبة الله (عز وجل) مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة ، لا يعرفها إلا العالم بالله (عزّ وجلّ) وبعظيم صفاته ، أما أهل الغفلة عن الله فهم في دنيا الناس أموات ، فلا يستشعرون نظر الله إليهم ولا علمه سبحانه وتعالى بهم. قال ابن الجوزيّ: الحقّ (عزّ وجلّ) أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، لكنّه عامل العبد معاملة الغائب عنه ، البعيد منه ، فأمر بقصد نيّته، ورفع اليدين إليه ، والسّؤال له ، فقلوب الجهّال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحقّقت مراقبتهم للحاضر النّاظر لكفّوا عن الخطايا. والمتيقّظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة ، وكفتهم عن الانبساط) (صيد الخاطر).

والمراقبة الواجبة: هي المراقبة العامة التي تبدأ من قبل العمل بأن يراقب العبد قلبه وقصده ونيته ، هل هي لله أم لغيره سبحانه وتعالى؟ فإن كان العمل خالصًا لله تعالى أمضاه ، وإلّا تركه، وهذا هو الإخلاص.

ثم يراقب العبد جوارحه وقلبه أثناء العمل ، مستشعرًا نظر الله إليه،

فيحسنه ويتقنه على قدر وسعه وطاقته ، وكذلك يراقب العبد جوارحه بعد العمل فلا يعجب به ولا يتكبر على خلق الله. قال الحسن: (رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخّر) (إحياء علوم الدين)، فهذه مراقبة العبد لله (عز وجل) في الطّاعة ، وأما مراقبة العبد في المعصية تكون بالتّوبة والنّدم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشّكر على النّعم ، فإنّه لا بدّ له من الشّكر عليها.

ومما يعين على المراقبة: أن يجتهد العبد في التعرف على أسماء الله تعالى وصفاته ليتصور عظمته سبحانه وسعة علمه وسمعه وبصره وإحاطته بأحوال الخلق؛ فيتولد عنده معنى الحياء والخوف والتعظيم والتوقير لله ، وكذلك كثرة الذكر باللسان يشعر المؤمن بقربه من الله تعالى ومراقبته ، والتفكر في شدة الحساب وأحوال الموقف بين يدي الله (عز وجل) يوم الآخرة ، ومذاكرة أحوال أهل المراقبة من الأنبياء والصديقين وأحوال السلف الصالح فهي مليئة بالعبر والعظات في هذا الباب ، كل هذه الأشياء تعين على المراقبة لله.

فلو أننا راقبنا الله (عز وجل) حق المراقبة لتغيرت سلوكيات وتصرفات المجتمع إلى الأفضل ؛ لأن الإنسان إذا ما استشعر معية الله ، وأنه سبحانه وتعالى مطلع عليه وعلى أفعاله ، وقاه الله (عز وجل) كثيرًا من الشرور والمفاسد والآثام ، لذا قيل : (اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن عينه لحظة ، وشكرك لمن لا تنقطع نعمته عنك ، وطاعتك لمن لا تستغني عنه ، وخضوعك لمن لا تغيب عن ملكه وسلطانه) ، وذلك لأن الله (عز وجل) مراقب لحركات الإنسان وسكناته ، وأنه (سبحانه وتعالى) لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه سبحانه {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}، وأنه (تعالى) قد يمهل ولكنه (عز وجل) لا يهمل أبدًا ، يقول سبحانه:{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[إبراهيم: ٤٢].